**المحاضرة الثامنة**

قضية اللفظ والمعنى عند ابن قتيبة وابن طباطبا وقدامة بن جعفر

كثر حديث النقاد القدامى عن هذه القضية، وانقسموا إزاءها إلى طوائف ثلاث؛ فمنهم من فضل اللفظ على المعنى، ومنهم من فضل المعنى على اللفظ، و منهم من وقف موقفا توفيقيا، فاهتم بطرفي الثنائية، و لم يفضل طرفا على الآخر.

وقبل البدء في عرض آراء النقاد ومواقفهم من القضية، ينبغي بداية أن نحدد مفهوم طرفي هذه الثنائية؛ فالمعنى يقصد به جانب المضمون والفكرة التي يَـبين عنها البيت أو القصيدة والمحتوى، أما اللفظ فالمقصود به جانب الصياغة أو الشكل.

**1/ موقف الجاحظ:**

يعد الجاحظ على رأس الطائفة الأولى من النقاد الذين آثروا اللفظ على المعنى في مقولته المشهورة: ''والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي، والبدوي والقروي، والمدني، وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتخير اللفظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وفي صحة الطبع، وجودة السبك''.

فالجاحظ هنا صريح في تفضيله للجانب الشكلي المتمثل في الوزن، واللفظ والصياغة على المضمون، وربما كانت هناك عوامل كثيرة دفعت الجاحظ إلى القول بهذه. وأيا تكن تلك العوامل، فإن الذي لا شك فيه هو أن رأيه هذا كان له أثر كبير على من جاء بعده من النقاد، وأسهم في تكريس الفصل بين اللفظ و المعنى، أو الشكل والمضمون في العمل الأدبي.

وفي الإطار نفسه يرى الجاحظ ألا قيمة للمعنى بدون لفظ، فحياة المعنى ونشاطه متعلقة باللفظ، وفي ذلك يقول : ''المعاني القائمة في صدور الناس، المتصورة في أذهانهم، والمتخلجة في نفوسهم، والمتصلة بخواطرهم، والحادثة عن فكرهم مستورة خفية، وبعيدة وحشية، ومحجوبة مكنونة، وموجودة في معنى معدومة، لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه، ولا حاجة أخيه وخليطه، ومعنى شريكه، والمعاون له على أموره، وعلى ما لا يبلغه من حاجات نفسه إلا بغيره، وإنما يحي تلك المعاني ذكرهم لها، وإخبارهم عنها، واستعمالهم إيـاها … وعلى قدر وضوح الدلالة، وصواب الإشارة، وحسن الاختصار، ودقة المدخل يكون إظهار المعنى، كلما كانت الدلالة أوضح و أفصح، وكانت الإشارة أبين وأنور كان أنفع وأنجع''.

و إذا كان الجاحظ قد نادى بأفضلية اللفظ على المعنى إلا أننا بالمقابل نجد له نصوصا أخرى تدل على أنه يميل إلى التوفيق بين اللفظ والمعنى، وأنه كما يتفاوت اللفظ يتفاوت المعنى؛ فالمعنى فيه ما هو شريف، وفيه ما هو خسيس، فمن ''أراد معنى كريما، فليلتمس له لفظا كريما، فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف''، بينما ''سخيف الألفاظ مشاكل لسخيف المعاني''. ما يعني أن في كلام الجاحظ عن اللفظ والمعنى غموضا، لا تكشفه إلا قراءة كتابه (البيان والتبيين) كله، ومراجعة ما ينتشر في ثناياه.

**2/ موقف ابن قتيبة (ت276ه):**

نظر ابن قتيبة للشعر انطلاقا من ثنائية اللفظ والمعنى فوجده أربعة أضرب هي:  
1 - ضرب منه حسن لفظه وجاد معناه، كقول أوس بن حجر:  
 أيتها النفس أجملي جزعا\*\*\*إن الذي تحذرين قد وقعا

2 - ضرب منه حسن لفظه وحلا، فإذا أنت فتشته لم تجد هنا فائدة في المعنى، كقول القائل:   
 ولما قضينا من منى كل حاجة\*\*\*ومسّح بالأركان من هو ماسح  
 وشدت على حدب المهاري رحالنا\*\*\*ولا ينظر الغادي الذي هو رائح   
 أخذنا بأطراف الحديث بيننا\*\*\*وسالت بأعناق المطي الأباطح

3- ضرب منه جاد معناه، وقصرت ألفاظه عنه، كقول لبيد بن ربيعة:  
 ما عاتب المرء الكريم كنفسه\*\*\*والمرء يصلحه الجليس الصالح

4 - وضرب منه تأخر معناه وتأخر لفظه، كقول الأعشى:  
 وقد غدوت إلى الحانوت يتبعني\*\*\*شاوٍ مشلٌّ شلولٌ شلشلٌ شولُ

ومن خلال هذه الأقسام يتضح أن ابن قتيبة يقسم الشعر إلى لفظ ومعنى، كما ذهب إلى أن الحسن أو الرداءة كما تكون في كليهما، قد تكون في أحدهما.

3- موقف **ابن طباطبا العلوي (ت 322 هـ):**

نظر ابن طباطبا للشعر نظرة ذوقية حين جعل صحة المعنى والوزن وعذوبة اللفظ عيار الشعر الجيد، قال في ذلك: ''هناك أشعار باردة المعنى، أبرزت في أحسن معرض وأبهى كسوة وأرق نسيج''. وأما العلاقة بين اللفظ والمعنى فهي كعلاقة الجسد بالروح وفي ذلك يقول: ''والكلام الذي لا معنى له كالجسد الذي لا روح فيه، كما قال بعض الحكماء: الكلام جسد وروح، فجسده النطق وروحه معناه''

4/ موقف قدامة بن جعفر (ت337ه):

يظهر تأثر ابن قتيبة بمسألة اللفظ والمعنى في حديثه عن مظاهر الجودة وكذا الرداءة التي قد تصيب الشعر من جانب لفظه أو من جانب معناه، ما يعني أنه نظر نظرة ثنائية للشعر. فقد حدد قدامة في كتابه (نقد الشعر) معايير وشروط اللفظ، كما حدد نعوت المعاني وعيوبها، وذكر ائتلاف اللفظ مع المعنى. ومن عيوب اللفظ التي ذكرها: ''أن يكون ملحونا وجاريا على غير سبيل الإعراب واللغة، وأن يرتكب الشاعر فيه ما ليس يستعمل ولا يتكلم به إلا شاذا وذلك هو الحوشي الذي مدح عمر ابن الخطاب زهيرا بمجانبته له وتنكبه إياه فقال: كان لا يتبع حوشي الكلام''.

وعن ائتلاف اللفظ والمعنى استخلص قدامة أنواعا منه هي:

المساواة: وهو أن يكون اللفظ مساويا للمعنى، فلا يزيد عنه ولا ينقص.

الإشارة: وهو أن يشتمل اللفظ القليل على المعنى الكثير بالإيماء إليها أو التلميح.

الإرداف: وهو أن يأتي الشعار للدلالة على معنى من المعنى بلفظ دال على معنى هو ردفه وتابع له.

التمثيل: وهو أن يريد الشاعر إشارة إلى معنى، فيضع كلاما دالا على معنى آخر، وهذا المعنى والكلام ينبئان عما أراد الشاعر الإشارة له.